الفصل التاسع

غزوة اليمامة

الجيش الذى أمد به أبو بكر خالداً لقتال مسيلمة

سار خالد بن الوليد من البطاح على رأس عسكره ومعه المدد الذى أمده أبو بكر به ، ومقصدهم جميعًا اليمامة ، يلقون بها مسيلمة بن حبيب متنبئ بنى حنيفة . ولم يكن هذا المدد الذى بعث به الصدّيق دون جيش خالد أيْداً أو قوة . فقد تألف من رجال من المهاجرين والأنصار أصحاب رسول الله الذين شهدوا الحرب فشهدت لهم الحرب ، ومن القبائل التى عُرفت فى القتال بالبأس والبطش . ولقد كان ثابت بن قيس والبَراء بن مالك على رأس الأنصار ، وأبو حُذيفة بن اليمان وزيد بن الخطاب على رأس المهاجرين ؛ أما القبائل فكان على كل قبيلة زعيمها . وهل كان لأبى بكر أن يضن على قائد عسكره للقاء مسيلمة بمدد ! لقد كان يعلم أن أربعين ألفًا يقفون إلى جانب هذا المتنبئ فى عُدة القتال ، وأنهم يؤمنون به ويلاقون الموت فى سبيله ، فإذا هو لم يرمهم بخيرة المسلمين فى القيادة ، وفى البطولة ، وفى خوض المعامع ، تعرضت سياسته فى قتال أهل الردة جميعًا للفساد . وأبو بكر أحصف وأعلى رأيًا وأبعد نظراً وأقوى إيمانًا من أن يعرض الإسلام الناشئ لمثل هذا المصير .

وكان بين هؤلاء الذين أمد بهم أبو بكر خالداً جماعة من القراء حفّاظ كتاب الله ، كما كان بينهم جماعة ممن شهدوا بدراً . هذا مع أن أبا بكر كان يضن بأهل بدر ويقول : « لا أستعمل أهل بدر ، أدعهم حتى يلقوا الله بصالح أعمالهم ؛ فإن الله يدفع بهم وبالصالحين أكثر مما ينتصر بهم » . وإنما خرج الصدّيق على رأيه ذاك ، فأمد خالداً بالبدريين وبمن شهدوا المواقع فى عهد الرسول ، لأن مسيلمة كان قد استغلظ أمره فى اليمامة ؛ فكل تضحية فى سبيل القضاء عليه دفع عن دين الله ، وكل تهاون معه يزيد الثورة فى بلاد العرب ضِرامًا ، ويزيد موقف المسلمين حرجًا .

والحق أن ما أدركه المسلمون إلى ما قبل اليمامة من النصر قد كان بالقياس

إليها هيناً يسيراً . كانت القبائل القريبة من المدينة والتى أرادت محاصرتها غداة بيعة الصدّيق ، لا يدعى أحد فيها النبوة ، ولا تطمع فى شىء إلا أن تعفى من الزكاة . وقد نجح عَدىّ بن حاتم فى صرف القبائل عن طُلَيحة الأسدىّ ، فهان أمره فلم يقدر على المقاومة . ولم تكن أم زِمل لتقوى عليها بمن اجتمع حولها من فلول تلك القبائل . وكان بنو تميم على خلاف بينهم ، وكانت سجاح قد وهَنَت من عزم مالك بن نويرة ، فلم يكن بينه وبين خالد بن الوليد قتال . أما مسيلمة ومن اجتمع حوله باليمامة فكانوا ينكرون أن يكون محمد رسول الله إليهم ، وكانوا يرون لأنفسهم ما لقريش من حق ، فلهم نبى ورسول ، كما لقريش نبى ورسول ؛ وبينهم من الجند البواسل أضعاف جند قريش عدداً . وهم إلى ذلك كتلة واحدة ، لا يفتّ فى عضدهم خلاف ولا يضعضع من عزمهم تنافس ، وليس بينهم من التفاوت فى العقيدة والجنس ما بين أهل اليمن . لا جرم ، وذلك شأنهم ، أن يكونوا أولى بأس وقوة يجب أن يحسب الصدّيق لها الحساب .

قوة مسيلمة وأسبابها

ولم تكن هذه العوامل وحدها هى التى لفتت نظر أبى بكر لتقوية غُزَاة اليمامة ما استطاع تقويتهم . فهو حين عقد ألويته الأحد عشر لحرب أهل الرّدة لم يكن يقيم لمسيلمة كل هذا الوزن ، أو يحسب لبنى حنيفة كل هذا الحساب ، لذلك وجّه إليهم عكرمة بن أبى جهل ، ثم وجّه فى أثره شُرَحْبيل ابن حَسَنة يعاونه . وسار عكرمة إلى اليمامة ولم ير أن ينتظر شُرَحبيل ، بل بادر بلقاء مسيلمة ليكون له فخار النصر عليه . وكان عكرمة بطلا مجرباً وفارساً مغواراً ، وقد اجتمع فى لوائه أبطال صناديد طالما أبلَوْا فى الحرب أحسن البلاء . مع ذلك لم يثبُت عكرمة ولا ثبت لواؤه لمسيلمة ، بل نكَبهم بنو حنيفة فانهزموا ، وبلغ من نُكْر هزيمتهم أن أقام شُرَحبيل بالطريق حيث أدركه الخبر على حقيقته الفاجعة . وكتب عِكرمة لأبى بكر بالذى أصابه وأصاب جنده ، فملك أبا بكر الغضب وكتب إليه : « يا ابن أم عكرمة ! لا أرينّك ولا ترنى . لا ترجعن فتُوهن الناس . امضِ إلى حُذَيْفَةَ وعَرْفَجَةَ فقاتل أهل عُمان ومَهْرَةَ ، ثم تسير أنت وجندك تستبرءون الناس حتى تلقَى المهاجر بن أبى أمية باليمن وحضرموت » . ولا أرانى فى حاجة إلى بيان ما فى هذا الكتاب من مظهر الغضب .

عكرمة بن أبى جهل ينهزم أمام قوات مسيلمة

وحسبُك بدؤه بقوله : « يا ابن أم عكرمة » ، فنى هذه العبارة ما فيها من زراية واستخفاف .

كيف استغلظ أمر مسيلمة ؟!

كيف استغلظ أمر مسيلمة حتى بلغ هذا المبلغ ؟ ! لقد كان — على تعبير مؤرخى العرب — « رويجلا ، أصيفر ، أخينس » لا يدعو مظهره إلى تقدير واحترام . ولقد ذهب مع وفد بنى حنيفة إلى النبىّ عام الوفود ، فلما بلغ الوفد المدينة لم يأخذه قومه ليلقى النبىّ معهم ، بل خلّفوه على رحالهم . ولما سلم القوم بذل لهم النبى العطاء ، فذكروا له مسيلمة ، فأمر له بمثل ما أمر به لكل منهم ، وقال يجامله : « أمَا إنه ليس بشرّكم مكانًا » ، وذلك لحفظه رحال أصحابه . أفيكون ذلك هو الذى يدعى النبوة من قومه ! لذلك لم يصدقه منهم أول الأمر إلا نفر قليل . أفعجزة تلك التى جمعت الألوف وعشرات الألوف حوله فيما دون السنتين ؟ كلا ! وإنما هى شعبذة المشعبذين ، وحيل المحتالين ، وانقياد الجماعات لهؤلاء وأولئك . فقد كان من أهل هذه الأرجاء رجل يُدْعَى « نهاراً الرجّال — أو الرحال — بن عُنْفُوة » . وكان قد هاجر إلى رسول الله بالمدينة ، فقرأ القرآن ، وفقه الدين ، وعرف تعاليم الإسلام ، وكان ذكيًّا ذا بصيرة . أرسله رسول الله معلمًا لأهل اليمامة يفقههم فى الدين ، ويرد من اتبع منهم مسيلمة ، ويشد من عزائم المسلمين ويشغب معهم على المتنبئ الكاذب .

نهار الرجال وخدعته

لكن « نهاراً » كان أعظم فتنة على بنى حنيفة من مسيلمة نفسه . فهو لم يلبث ، حين رأى السواد يتبعه ، أن أقرّ بنبوته وأن شهد بأن محمداً يقول إن مسيلمة قد أشرك فى الرسالة معه . ما عسى أن يقول أهل اليمامة عن هذا ! لقد شهد شاهد من أهل محمد لمسيلمة . وهذا الشاهد رجل فقيه عالم ، يتلو عليهم قرآن محمد ، ويقص عليهم تعاليمه ، ويفقّههم فى دينه ، وهو يشهد لمسيلمة بالنبوة . ما إلى نفى ذلك أو الطعن فى صحته بعدئذ من سبيل . لذلك أقبل الناس على مسيلمة أفواجًا يؤمنون به رسولا لله إلى بنى حنيفة ، وبذلك أقبلت عليه الدنيا وأصبح فى متناول يده كل ما يشاء ويهوى .

ووضع مسيلمة كل ثقته فى « نهار الرجّال » وصار ينتهى إلى أمره فى كل ما يريد أن يقلد محمداً فيه . وجعل نهار ، لقاء ذلك ، يُعبّ من نعيم الحياة

الدنيا ويستمتع بكل ما لذّ له أن يستمتع به منها . وإذا الفقهاء والعلماء أسلموا لمتاع الدنيا أنفسهم ، وأخضعوا لمن يملكون هذا المتاع علمهم ، فويلٌ للعلم والفقه ، وويل للحقيقة أى ويل ! . .

ولسنا نقف عندما يروى من محاولة مسيلمة إتيان المعجزات ، ولا عندما أوحى إليه فى زعمه ، فذلك كله سخف لا يثبت للتاريخ ونقده . وحسبُنا ما تقدم بياناً للأسباب التى أدت إلى متابعة الناس مسيلمة وإلى استفحال أمره ، حتى لم يستطع عكرمة حين لقيه إلا أن يعود منكوباً مهيض الجناح .

طليحة النمرى وكيف اتبع مسيلمة

ولا تسل كيف اتّبع مسيلمةَ عقلاء قومه ، وأنت تعرف العصبية العربية وتعصب القبائل لاستقلالها وحريتها . ذكروا أن طُليحة النّمرى جاء اليمامة فقال : أين مسيلمة ؟ قالوا مَهْ ، رسول الله . قال لا ، حتى أراه . فلما جاء قال له : من يأتيك ؟ قال : رحمان . قال : أفى نور أم فى ظلمة ؟ قال مسيلمة : فى ظلمة . ورد طليحة : أشهد أنك كذاب وأن محمداً صادق ، لكن كذاب ربيعة أحبُّ إلينا من صادق مُضر . وفى رواية ذكرها الطبرى أن طليحة قال : كذّاب ربيعة أحب إلينا من كذّاب مضر . واتّبع الرجل مع ذلك مسيلمة وقاتل وقتل معه .

خالد يسير إلى اليمامة بجيوشه

أمّا وذلك شأن مسيلمة وما أصاب عكرمة فى قتاله ، فلم يكن بين قواد العرب من ينازله غير داهية الحرب وعبقريّها خالد بن الوليد ، ولم يكن عجباً أن يعزز أبو بكر خالداً بالمدد . ثم إن الصديق كتب إلى شُرَحبيل بن حَسَنَة أن يقيم حيث هو حتى يجىء خالد إليه . فإذا فرغوا من مسيلمة لحق شرحبيل بعمرو ابن العاص يُعينه على قضاعة فى شمال شبه الجزيرة .

وفيما خالد يسير إلى اليمامة التقت جيوش مسيلمة بلواء شرحبيل واضطرته إلى الارتداد . يقول بعض المؤرخين إن شرحبيل صنع ما صنع عكرمة ، وأراد أن يفوز بفخار النصر فأصابه ما أصاب سلفه . ولعل الأمر لم يكن كذلك ، وإنما تقدمت جند من اليمامة فلاقوا شرحبيل فارتد عنهم حتى يجيئه خالد . وأى ذلك كان فقد بقى شرحبيل حيث تراجع حتى بلغته جيوش المسلمين ، فلما عرف خالد ما أصابه لامه أشد اللوم على صنيعه . ولعله كان يؤثر أن يتراجع

من غير أن يشتبك مع خَصْمه حتى لا يقوّى الظفر روحهم المعنوية .

سرية مجاعة بن مرارة يقتلها خالد بن الوليد

وإن جيوش خالد لتتلاحق إلى أرض اليمامة وتبلغ أنباؤها مسيلمة ، إذ خرج مُجَّاعة بن مُرَارَة فى سرية يطلب ثأراً له فى بنى عامر وبنى تميم ، وقد خاف أن يفوته إذا شُغل بلقاء المسلمين وقتالهم . وأدرك مُجَّاعة ثأره وكرّ راجعًا مع أصحابه ، حتى إذا بلغوا ثَنِيّة اليمامة كان التعب قد أخذ منهم فناموا . وأدركهم جيش خالد فتنبّهوا ؛ وعرف خالد أنهم من بنى حنيفة ، وظن أنهم خفوا لقتاله فأمر بقتلهم ، لم يغن عنهم قولهم إنهم خرجوا لثأرهم . فقد سألهم عن رأيهم فى الإسلام ، فكان جوابهم : نقول منا نبىّ ومنكم نبىّ . وقال أحدهم ، سارية بن عامر ، وهو يُعرَض على السيف يخاطب خالداً : « أيها الرجل ، إن كنت تريد بهذه القرية غداً خيراً أو شرًّا فاستبق هذا الرجل » وأشار إلى مُجَّاعة . واستبقى خالد مجاعة لم يقتله ، وجعله كالرهينة ؛ لأنه كان من أشراف بنى حنيفة ، وكان له عندهم مقام كريم ، ولأن خالداً كان يطمع فى معاونته إياه بالرأى . ولقد قيّده بالحديد ، وجعله فى قبّته ، وجعل زوجه الحديدة ليلى أم تميم على حراسته .

لكنه يأخذ مجاعة رهينة عنده

جند مسيلمة بعقرباء

كان مسيلمة قد جمع جنده بعقرباء فى طرف اليمامة ، وجعل الأموال وراء ظهورهم . وكان هذا الجند أربعين ألفًا ، وقيل ستين ألفًا . وهذه أعداد قلما سمع العرب بمثلها فى الجيوش من قبل . وأقبل خالد غداة اليوم الذى ارتهن فيه مجاعة فصف جنده فى وجه مسيلمة صفّ القتال . ووقف الجيشان ينظران أمر الصّدام ، وكلّ يقدر أن مصيره معلق بمصير ذلك اليوم . ولم يبالغ أيهما فى تقدير هذا الأمر ؛ فيوم اليمامة من الأيام الحاسمة فى تاريخ الإسلام وفى تاريخ العرب .

يوم اليمامة حاسم فى تاريخ العرب

كانت قوة مسيلمة قوة الردة الملحة والإنكار الصريح أن تكون نبوة محمد لغير قريش ، وأن تكون للناس كافة . وكانت هذا القوة هى المركز الذى تتطلع إليه الأعين من اليمن وعُمان ومَهْرَة والبحرين وحضرموت والجنوب كله من شبه الجزيرة منحدراً من مكة والطائف إلى خليج عدن ، وتتطلع إليه الأعين كذلك من بلاط فارس . وكانت جيوش مسيلمة تؤمن به وتتفانى فى

سبيله ، ثم تزيدها الخصومة القديمة بين الحجاز وجنوب الجزيرة إيمانًا وتفانيًا . وكانت جيوش المسلمين زهرة قوتهم والملاذ والحمى الدين الله وكلمته ؛ عليها خالد أعظم قائد عرفه التاريخ فى عصره ، وبينها حفّاظ كلام الله قراء القرآن ، وقد جاءوا جميعًا يملأ الإيمان قلوبهم بأن الجهاد فى سبيل الله والدفع عن دينه الحق أول فرض على المؤمن ، وأنه فرض عين على كل ذى علم وبيّنة . لا محيص إذن أن تكون المعركة حامية ، وأن تكون مثلاً لما لقوة الإيمان من بأس وسلطان .

ابن سيلمة يحرض قومه فى بنى حنيفة

وتقدم شُرَحْبيل بن مسيامة يحرض جيش بنى حنيفة بعبارات تهتز لها النفس العربية الدقيقة الحس بكل ما يتصل بالعِرض والحسب أشد اهتزاز . صاح فيهم : « يا بنى حنيفة ! اليوم يوم الغَيْرة ، إن هُزمتم تُسْتَرْدَف النساء سبيًّات ، ويُنْكَحْنَ غير حَظِيّات . فقاتلوا عن أحسابكم ، وامنعوا نساءكم » ، وأمرهم أن يشدوا . والتقى الجمعان والمسلمون لمّا تحتدم حميّتهم ؛ يقول المهاجرون لسالم مولى أبى حُذَيْفَةَ : تخشى علينا من نفسك شيئًا ؟ فيجيبهم : بئس حامل القرآن أنا إذاً . بل لقد تنابزوا بشر من هذا الحديث وأسوأ منه أثراً . جعل المهاجرون والأنصار يرمون بالجبن أهلَ البوادى ، ويرميهم أهلُ البوادى بمثل ما يرمونهم به . يقول أهل القرى : « نحن أعلم بقتال أهل القرى يا معشر أهل البادية منكم » . ويقول أهل البادية : « إن أهل القرى لا يحسنون القتال ولا يدرون ما الحرب » .

تراجع المسلمين ودخول جنود مسيلمة فسطاط خالد بن الوليد

لذلك لم يَثْبُتوا لجموع بنى حنيفة ، مع ما كان بين الفريقين من قتال شديد ؛ فانثنى صف المسلمين هزيمًا ، وزال خالد عن فُسْطاطه ، فدخله بنو حنيفة فرأوا فيه مُجَّاعة مقيداً بالحديد ورأوا على مقربة منه أم تميم . وحمل رجل منهم بالسيف على ليلى يريد أن يقتلها ، فصاح به مجاعة : « مَهْ ؛ أنا لها جارٌ ، فنِعْمَتِ الحرة ؛ عليكم بالرجال ! » . وقطع الجند حبال الفسطاط ومزقوه بسيوفهم تاركين مجاعة وليلى ينظران ما الله صانع بالقوم جميعًا .

على أن المسلمين لم يتراجعوا حتى قتلوا من بنى حنيفة خلقًا كثيراً . وكان فى الأولين الذين قُتلوا نَهارٌ الرجّال القارئ الفقيه الخائن الخادع . خرج فى

طليعة بنى حنيفة ، فلقيه زيد بن الخطاب فقتله ، فأزال بقتله من الوجود روح الإثم التى طوعت لمسيلمة أن يبلغ ما بلغ ، وأن يقف وجنده يهدد المسلمين ويرسل الروع فى نفس كل حريص على دين الله .

لم تزايل خالدَ بن الوليد رباطة جأشه حين زال عن فسطاطه ، ولم يداخله ريب فى مصير اليوم . لقد رأى أنَّما انهزم من جند المسلمين من انهزم لتنابز الناس وتواكلهم ، فلو لم يتواكلوا انتصروا . لذلك لم يلبث حين لاحت له فترة تهادن بين الفريقين أن صاح فى الجند صيحة بطش وغضب : « امتازوا أيها الناس لنعلم بلاءَ كل حىّ ، ولنعلم من أين نؤتى » . ودوَّت هذه الصيحة ، تداولها سمعُ الجيش كله فنبهته إلى حقيقة أمره . واطمأن خالد ، حين رأى الناس امتازوا ، إلى أنه قطع بأمره كل مظنة للتواكل ، وأنه هيَّأ للنصر طريقه .

صيحة خالد : امتازوا أيها الناس

أثارت صيحة خالد ما ركَّب فى الفطرة العربية من قوة العصبيَّة ، ورأى زعماء المسلمين ما حل بهم ، فثارت فى قلوبهم الحميَّة لدين الله ، وسما الإيمان بنفوسهم إلى ما فوق مراتب الحياة ، وتجلَّى الاستشهاد أمامهم باسمًا مضيئًا يفتح لهم أبواب الجنة خالدين فيها ، وأظلتهم نسمة من روح الله أرتهم الحياة لهواً ولعبًا وغروراً باطلا ، فانقلبوا من الهزيمة يطلبون النصر أو الشهادة . قال ثابت بن قيس — وكان على رأس الأنصار — : « بئسما عودتم أنفسكم يا معشر المسلمين ! اللهم إنى أبرأ إليك مما يعبد هؤلاء (وأشار إلى أهل اليمامة) وأبرأ إليك مما يصنع هؤلاء (وأشار إلى المسلمين) ، ثم اندفع إلى الوطيس يقاتل ويقتُل ، وينادى : « هكذا عنّى حتى أريكم الجلاد ! » وأبلى بلاء أذهب عن الأنفس الروع ، وظل يجاهد حتى خلصت إليه الجراح من كل جانب فمات وقد رزق الشهادة . وكان البرَاء بن مالك من الصناديد الذين لا يعرفهم الفرار ، فلما رأى ما صنع الناس وثب وقال : « أين يا معشر المسلمين! أنا البراء بن مالك . هلمَّ إلىّ ! » . وسمعه المسلمون وكلهم يعرفون بأسه ، ففاء إليه منهم فئة قاتلت القوم وقتلت منهم حتى أجلتهم عن مواقفهم . وهبَّتْ ريح أثارت الرمال فى وجوه المسلمين ، فذهب قوم يتحدثون إلى زيد بن الخطاب

الحمية لدين الله تثور فى قلوب المسلمين

ما يصنعون ، فكان جوابه : « لا والله لا أتكلم اليوم حتى نهزمهم ، أو ألقى الله فأكلمه بحجتى . غضوا أبصاركم وعضوا على أضراسكم أيها الناس ، واضربوا فى عدوكم وامضوا قُدمًا » واندفع فى صدر القوم يقاتل ويقتل ، وجنده من ورائه ، حتى لقى الله يكلِّمه بحجَّته . وصاح أبو حُذيفة بمن حوله : « يأهل القرآن ، زيِّنوا القرآن بالفعال » . وألقى بنفسه فى الغمار يقاتل وقومه حتى ضمه الله إليه . وأخذ سالم مولى أبى حُذيفة الراية وقال : « بئس حامل القرآن أنا إن لم أثبُت » : وقاتل حتى قُتل . بهذه الصيحات الصادرة من قلوب ملأها الإيمان قوة وبأسًا ، سرت روح الاستشهاد فى جند المسلمين جميعًا ، فهانت أمامهم الحياة واستحبوا الشهادة عليها ، فاندفعوا يطلبونها صادقين ، فردوا جيوش مسيلمة إلى ما وراء خطوطها الأولى .

الذين ابتغوا الشهادة فوازوا بها

وكانت جيوش مسيلمة تقاتل قتال المستيئس هى كذلك . كانت تقاتل عن وطنها ، وتقاتل عن أحسابها ، وتقاتل عن عقيدة مريضة هى عندها دون الوطن ، ودون الحسب مقامًا ؛ لذلك ثبتت للمسلمين وجعلت تردُّ منهم من تستطيع رده ، وتحارب عن كل شبر من الأرض لا تتزحزح عنه حتى تعود وتحاول استرداده .

جيوش مسيلمة تقاتل قتال المستيئس

لم يُرَعْ خالد لاستبسال بنى حنيفة ، بل أيقن حين سمع صيحات المسلمين ، ورأى إقدامهم على الموت مستبشرين ، أنه ملك زمام اليوم ، وأن النصر صار منهم قريبًا .

لكنه حرص مع ذلك على أن يرى المسلمون هذا النصر قريبًا كما يراه هو . لذلك خرج على رأس رجاله وقال لحماته : « لا أوتينَّ من خلفى » ، ثم صاح صيحة المعركة : « يا محمداه » . وهو لم يكن يريد بخروجه وبصيحته أن يشدد العزائم فحسب ، بل كان يريد كذلك أن يسلك إلى النصر أسرع طرقه ، وأن يستله من مكمنه . فقد رأى بنى حنيفة يسقطون حول مسيلمة قتلى لا يبالون الموت ، فأيقن أن أقرب الطرق إلى النصر قتل مسيلمة نفسه . لذلك داور برجاله حتى كان حياله ، ثم جعل يستدرجه ليخرج إليه . وأقبل المحيطون بمسيلمة يخرجون إلى لقاء خالد فيلقاهم الموت من سيفه قبل أن يبلغوه . وكثر

خالد يداور ليقتل مسيلمة

فى هؤلاء القتل ، وشعر مسيلمة بالخزى يركبه لشدة جبنه ، فساورته نفسه أن يخرج كما خرجوا . لكنه أيقن أنه مقتول إن خرج لا محالة ؛ فتردد واضطرب . وإنه لفى اضطرابه وتردده إذ شد خالد بن الوليد برجاله عليه وعلى من حوله وركبوهم يعملون فيهم السلاح . هنالك صاح أصحاب مسيلمة به : « أين ما كنت تَعدنا ! » فأجابهم وقد ولى مدبراً : « قاتلوا عن أحسابكم » . وكيف يقاتلون وقد أسرع هو إلى الفرار ! أو ليس المنطق أن يتبعوه فارًّا كما اتبعوه نبيًّا ! !

فرار مسيلمة وأصحابه

ورأى محكّم بن الطفيل فرار القوم ، ورأى المسلمين يتعقبونهم ، فصاح بهم : « يا بنى حنيفة ! الحديقة » ، يريد منهم أن يحتموا بها . وكانت هذه الحديقة على مقربة منهم ، وكانت لمسيلمة وتدعى حديقة الرحمان ، وكانت فسيحة الأرجاء منيعة الجدران كأنها الحصن . وقد فروا إليها وتحصنوا بها من هزيمتهم بعد أن خر الألوف منهم صرعى مُجَدَّلين فى الميدان بسيوف المسلمين . ووقف المحكّم برجاله يحمى ظهورهم فى أثناء فرارهم . وإنه لكذلك يحاول صد المسلمين ويحرّض رجاله على دفعهم ، ويقاتل وإياهم أشد قتال حتى يتحصن قومه ، إذ رماه عبد الرحمن بن أبى بكر الصدّيق بسهم وقع فى نحره فقتله .

احتماهم بالحديقة

تحصن مسيلمة وقومه بالحديقة . أفيحاصرهم المسلمون وإن طال حصارهم ؟! كلا ! إن هذا الجيش الثمل بنشوة الظفر يريد النصر كاملا ؛ ويريده سريعًا . لذلك أحاط بالحديقة يلتمس فيها فرجة تغنيه عن فتح بابها الوثيق الرتاج فلم يجد . قال البَراء بن مالك : « يا معشر المسلمين ، ألقونى عليهم فى الحديقة » . قال الناس : « لا تفعل يابراء » . وماذا عسى أن يصنع البراء وحده بين هذه الألوف التى تكدست فى الحديقة لاجئة من الموت ! لكن البراء أصر على قوله وزاد : « والله لتطرحُنَّنى عليهم فيها » ورفعه المسلمون إلى أعلى الجدار ، فلما رأى القوم وكثرتهم تردد وتراجع وقال : أنزلونى . لكنه ما لبث أن عاد يقول : احملونى . وتكرر ذلك منه . ثم إنه وقف على الجدار تحدثه نفسه : إنه البراء البطل الذى يتحدث الناس فى شبه الجزيرة كلها بفعاله ، ألا لئن عاد أدراجه

البراء بن مالك يتسور الحديقة ثم يفتح بابها

ليقولنّ الناس : همّ ولم يفعل ، وليذهبن ذلك بشهرته فى البطولة ، وليتندرن الناس بإحجامه بعد الأقدام . وإن حدث ذلك فماذا يبقى له ، وأى وجه يطالع الناس به ! لذلك نضا عنه تردده وألقى بنفسه على بنى حنيفة أمام باب الحديقة ، فقاتلهم وقتل يمنة ويسرة ، حتى فتح الباب للمسلمين ، ودخلوا منه زُمَراً تلمع فى أيديهم سيوفهم ، ويطل الموت من حدق عيونهم ؛ فما لبث بنو حنيفة حين رأوهم أن فروا أمامهم يتراكضون فى الحديقة التى انقلبت سجناً تراكض الأغنام رأت الذابح يدخل عليها بسكينه .

اقتحام المسلمين الحديقة ومهاجمتهم جيوش مسيلمة بها

هذه رواية . ورواية أخرى أن المسلمين تسوّروا الحديقة من الجدران وحاولوا اقتحام الباب . ولعل البراء كان بين الذين تسوّروا الجدران أقربهم مكاناً من الباب ، وأنه ألقى بنفسه فى الحديقة ففتحه للمسلمين بعد أن قاتل من وجده من القوم دونه ؛ وذلك حين كان اللاجئون إلى الحديقة فى شغل عنه بمن شدوا عليهم يرمونهم بالنبل من أعلى .

اقتحم المسلمون الحديقة والتحموا بأعدائهم فيها ، وما عسى أن تجدى سيوف بنى حنيفة والأشجار من حولهم تعوقهم ! مع ذلك استحر القتال وكثر القتل بين الفريقين ، وإن زاد قتلى بنى حنيفة على قتلى المسلمين أضعافاً مضاعفة . وكان وحشىّ الحبشىّ قد أسلم بعد أحُد ، وبعد أن قتل حمزة سيد الشهداء فيها ، وكان حاضراً اليمامة . ولقد رأى مسيلمة فى الحديقة فهز حربته ، حتى إذا رضى عنها دفعها عليه فأصابته . وقد اشترك معه رجل من الأنصار ضرب مسيلمة بسيفه ، فكان وحشىّ يقول : ربك أعلم أينا قتله . وصاح رجل يقول : قتله العبد الأسود .

مقتل مسيلمة

انهدّت عزائم بنى حنيفة حين سمعوا الصيحة بموت مسيلمة وأسلموا أنفسهم لا يقاومون ، وأمعن المسلمون فيهم قتلا . فلم تعرف بلاد العرب فى تلك العصور موقعة كان فيها ما كان فى موقعة اليمامة من دماء . لذلك أطلق على حديقة الرحمان اسم حديقة الموت ، ولا يزال هذا اسمها فى كتب التاريخ جميعاً .

مجاعة يدل خالداً على مسيلمة

ولما انتهت الموقعة أمر خالد فجيء بمُجَّاعة من فسطاطه ، فطلب إليه

أن يدلّه على مُسيلمة . وجعل القوم يكشفون عن القتلى حتى مروا بمحكّم اليمامة ، وكان المحكم وسيما ، فلما رآه خالد سأل مجاعة : هذا صاحبكم ؟ وأجاب مجاعة : لا ! هذا والله خير منه وأكرم ؛ هذا محكّم اليمامة . ودخل خالد ومجّاعة حديقة الموت فرّوا بجثة ذلك الرويجل الأصيفر الأخينس ، فقال مجاعة : هذا صاحبكم قد فرغتم منه . وقال خالد : هذا الذى فعل بكم ما فعل .

الآن وقد انتهت فتنة مسيلمة ، واجتُثّ أصلها ، وقد قُضِي على جيشه هذا القضاء المبرم ، أفما آن لخالد أن يطمئن ولجنده أن يستريح ؟

خالد يتابع المعركة حتى يبلغ النصر مداه

كلا ! ليس هذا من طبع خالد ، وليست هذه السياسة سياسته فى الحرب . إنما سياسته أن يبلغ النصرُ مداه حتى لا يترك وراءه ما قد تُخشى عواقبه . لم يكفه من حرب بنى أسد ومن والاهم فرار طليحة ، بل بقى حتى استبرأ الأرض ، وحتى قضى على أم زِمْل وفلولها . وهو لم يدَعْ بنى تميم حتى قضى فى ديارهم على كل نافخ فى نار للفتنة أو فى رماد . وكذلك فعل ها هنا . قال له عبد الله بن عمر وعبد الرحمن بن أبى بكر وقد فُرِغ ممن لجئوا إلى حديقة الموت : « ارتَحِلْ بنا وبالناس فانزل على الحصون » ، يريدان حصون اليمامة . فكان جواب خالد : «دعانى أبثّ الخيول فألقط من ليس بالحصون ، ثم أرى رأيى» . وبثّ الخيول فجاءوا بما وجدوا من مال ونساء وصبيان ، فضمه إلى العسكر . ثم نادى بالرحيل لينزل على الحصون فيفتضّها على من بها ، ويفرغ بذلك من بنى حنيفة فلا تقوم لهم من بعدُ قائمة أبداً .

كان خالد قد وثق بمجاعة بعد الذى كان من جواره أمّ تميم ، ومن إخلاصه القول له فى مسيلمة ومن معه . وجاء مجاعة هذا إليه وقال : والله ما جاءك إلا سَرَعانُ الناس ، وإن الحصون لمملوءة رجالا ؛ فهل لك إلى الصلح على ما ورائى ؟ ونظر خالد إلى جيشه فرأى قوماً نهكتهم الحرب وقد أصيب من أشراف الناس فيهم خلق كثير ، وهم إلى ذلك حِراصٌ على أن يعودوا متوّجين بفخار النصر . أما وقد يكون مجاعة صادقاً فقد رأى خالد من الخير أن يصالحه . وتصالحا على أن يحتفظ المسلمون بما غنموا إلا نصف السبى .

الصلح بين خالد ومجاعة

واستطرد مجاعة يقول : الآن آتى قومى فأعرض عليهم ما قد صنعت . وانطلق فقال للنساء : البسن الحديد ثم أشرفن على الحصون . وقد فعلن . ورآهن خالد فأيقن أن مجاعة لم يكذبه . وعاد مجاعة يزعم أنهم أبوا أن يجيزوا ما صنع ، وإنما أشرف على رءوس الحصون منهم من أشرف حتى يرجع إليهم فيروا رأيهم . ونزل خالد عن النصف مما كان قد تصالح عليه من السبي . فلما فتحت الحصون لم يجد بها إلا النساء والصبيان ومشيخة فانية ورجالا ضَعْنَى . عند ذلك نظر إلى مجاعة مغضباً وقال : ويحك ! خدعتنى ! وأجاب مجاعة مطمئناً : هم قومى ، ولم أستطع إلا ما صنعت . وأكبر منه خالد صدق وطنيته فأجاز الصلح وسرّح صاحبه .

ويروى أن مجاعة ذهب إلى قومه قبل كتابة عهد الصلح ، وقبل أن يرى خالد من بالحصون ، فعرضه عليهم ، فاعترضه سلمة بن عمير الحنفىّ وقال : « لا والله لا نقبل حتى نبعث إلى أهل القرى والعبيد فنقاتل ولا نصالح خالداً ؛ فإن الحصون منيعة والطعام كثير والشتاء قد حضرَ » . وأجابه مجاعة : «إنك امرؤ غرٌّ مشئوم . غرك أنى خدعت القوم حتى أجابونى إلى الصلح ، فهل بقى أحد فيه خير أو به دفع ! وإنما بادرتكم قبل أن يصيبكم ما قال شَرَحْبيل بن مسيلمة : قبل أن تُسْتَرَدف النساء سبيّات ، ويُنكحن غير حظيّات » . وسمع إليه القوم فأجازوا صلحه ولم يحفلوا قول سلمة بن عمير .

رسالة أبي بكر إلى خالد وإنفاذه الصلح برغمها

وجاء خالداً رسول من أبى بكر ومعه أمر أن يقتل كل قادر على القتال من بنى حنيفة . لكن خالداً كان قد صالحهم ؛ وهو رجل متى عهد وفى . وحُشر بنو حنيفة للبيعة والبراءة مما كانوا عليه ؛ وجىء بهم إلى خالد فى عسكره ، فبايعوا وأعلنوا براءتهم من الردّة ورجوعهم إلى الإسلام . وبعث خالد بوفد منهم إلى أبى بكر بالمدينة . فلما قدموا عليه قال لهم : ما هذا الذى استذلّ منكم ما استذل ؟ قالوا : يا خليفة رسول الله ، قد كان الذى بلغك مما أصابنا ، وقد كان امرأ لم يبارك الله له ولا لعشيرته فيه .

عدد القتلى من بنى حنيفة

ولعلك تسأل : كيف رضى خالد عن مجاعة بعد أن خدعه ، وخالد من نعرف بأساً وشدة ! لكن نصر المسلمين المؤزّر جعل خالداً أدنى إلى التسامح ؛

وقد بلغ قتلى بنى حنيفة مبلغًا زاده تسامحًا . قيل إن الذين قُتلوا فى حديقة الموت بلغوا سبعة آلاف ، وإن مثل هذا العدد قُتل منهم فى الميدان ، وإن سبعة آلاف أخرى قتلوا حين بثّ خالد جنوده تطارد الفارين . هذا إلى أن الصلح الذى عقده مجاعة قد ترك للمسلمين كل ما غنموا من ذهب وفضة ، وسلاح ، وجعل لهم ربع السبى ، وجعل لهم فى كل قرية من قرى بنى حنيفة حديقة ومزرعة يختارهما خالد . فإن يكن مجاعة قد أنجى بعد ذلك من بقى من قومه فلم يقتل منهم كل قادر على القتال ، فإن قومه جميعًا قد رجعوا إلى الإسلام وأقرّوا بسلطان أبى بكر . أما وقد بلغ خالد ذلك كله فليس له أن يغضب من مجاعة لخدعته أو ينقم منه بسببها .

وعدد قتلى المسلمين

وكما بلغ قتلى بنى حنيفة ذلك العدد الذى لم يكن يدور بخلد أحد من أهل ذلك العصر فى بلاد العرب ، بلغ عدد القتلى من المسلمين مبلغًا جاوز كل ما كان يجرى فى تقديرهم . قُتل فيها من المهاجرين ثلثمائة وستون ، ومن الأنصار ثلثمائة ، وذلك خلا من قتلوا من أهل القبائل . وبلغ مجموع قتلى المسلمين مائتين وألفًا .

ولقد عيَّر المهاجرون والأنصار أهل القبائل وفاخروهم بعدد قتلاهم . ولم يكن تفوق المهاجرين والأنصار مقصوراً على زيادة العدد فى القتلى ، بل كان بين هؤلاء تسعة وثلاثون من كبار الصحابة ومن حفاظ القرآن . وأنت تعرف ما لهؤلاء وأولئك من قدر ومقام بين المسلمين . ولكن ! رُبَّ ضارَّة نافعة ؛ فقد كان مقتل هؤلاء الحفاظ سبب جمع القرآن فى خلافة أبى بكر مخافة أن يستحر القتل فى سائرهم من بعدُ ، كما استحر فيمن حضر منهم غزوة اليمامة .

حزن المسلمين بمكة والمدينة على القتلى

ولم يكن يعدل حزن المسلمين بمكة والمدينة على هؤلاء القتلى إلا فرحهم بما آتاهم الله من النصر . عاد عبد الله بن عمر بن الخطاب بعد أن أبلى فى اليمامة أحسن البلاء . فلما لقيه أبوه قال له : « ما جاء بك وقد هلك زيد ! ألا واريت وجهك عنى ! » . وأجاب عبد الله : « قد حرصت على ذلك أن يكون ، ولكن نفسى تأخرت فأكرمه الله بالشهادة » . وفى رواية أنه قال :

« سأل الله الشهادة فأعطيها ، وجهدت أن تساق إلىّ فلم أعطها » . وليس حزن عمر لمقتل أخيه زيد إلا مثلا لما عمّ مكة والمدينة من أسى على الأبطال الذين استشهدوا فى قتال مسيلمة .

أفحزن خالد بن الوليد كما حزنوا ؟ أفأزعجه منظر القتلى وروعه مسيل الدماء ؟ ! كلا ! ولو أن ذلك كان لما جاز له يوماً أن يتولى القيادة ، وأن يكون فاتح العراق والشام ، وموطد الأساس الأول للإمبراطورية الإسلامية . وأين القائد القادر الذى لا يهتز طرباً حين يرى الألوف من الأعداء يخرون صرعى أمام جيوشه ! لم يرعْ خالد إذن ولم ينزعج ؛ بل إنه لم يلبث حين اطمأن إلى النصر وأتم الصلح وتسلم زمام الأمر أن دعا مجاعة إليه وقال له : « زوّجنى ابنتك » . وكان مجاعة قد سمع بحديث ليلى أم تميم وباستدعاء أبى بكر خالداً وتعنيفه إياه على ما فعل مما يخالف تقاليد العرب ، فقال : « مهلا ! إنك قاطع ظهرى وظهرك معى عند صاحبك » . ولم يعجب خالداً هذا الكلام فلم يعره أية عناية بل حدق إلى الرجل وقال : « أيها الرجل زوّجنى » . ومن ذا يستطيع أن يعصى له إثر نصره فى اليمامة أمراً ! وزوجه مجاعة ابنته ، فدخل بها فى بيت أبيها ، ثم جعل لها فسطاطاً يجاور فسطاط أم تميم .

خالد يتزوج ابنة مجاعة

وبلغ أبا بكر ما صنع خالد ، فتولته الدهشة أول ما عرفه ، ثم استحالت الدهشة غضباً ، فاستحال الغضب ثورة . لقد كان كل دفاعه عنه فى حادث أم تميم أنه لم يقتل زوجها ليتزوجها ، وأنه إن يكن أخطأ فإنما خطؤه أنه خالف تقاليد العرب وصنع ما يعيبونه من مثل هذا التزوج والدماء تقطر والمآتم قائمة . فكيف به يكرر فعلته فى اليمامة وقد قُتل بها من المسلمين مائتان وألف ولم يكن قتل منهم أحد فى حادث مالك بن نويرة ! لذلك لم يملك أبو بكر ، وهو الحليم ، غضبه ، بل دفعته ثورته فكتب إليه كتاباً « يقطر بالدم » على حد تعبير الطبرى ، جاء فيه : « لعمرى يا بن أم خالد إنك لفارغ ! تنكح النساء وبفناء بيتك دم ألف ومائتى رجل من المسلمين لم يجفّ بعد » ! وتناول خالد الكتاب ونظر فيه فتألم لغضب أبى بكر وهز رأسه وجعل يقول : هذا عمل الأعيسر ، يعنى عمر بن الخطاب . لكن الأمر لم يجاوز الأسف

ثورة أبى بكر لزواج خالد وكتابه إليه فى ذلك

لغضب أبي بكر من جانب خالد ، ولم يجاوز هذه الثورة على خالد وهذا الكتاب إليه من جانب أبي بكر .

عذر خالد بالغ

ومن تكون بنت مُجَّاعة فى أعياد النصر التى يجب أن تقام لخالد ! إنها لن تزيد على قُربان يطرح على قدمى هذا العبقرى الفاتح الذى روى أرض اليمامة بالدماء لعلها تطهر من رجسها . بل إنها لن تزيد على جارية من الجوارى اللائى يضربن بالدفوف فى هذه الأعياد ويتغنين مطربات ، أن عاد مهد الإسلام كاملا إلى حمى الإسلام . لكن ! تبارك اسمك اللهم ! إن الإسلام لا يعرف هذه الأعياد ؟ وإنما يعرف أن النصر من عند الله يؤتيه من يشاء . وقد آتاه خالداً ، فأعز به دينه الحق ، ومحق به الردة والمرتدين .

محا خالد الردة والمرتدين بغزوة اليمامة ومحقهم . بذلك آن لبلاد العرب أن تطمئن وتدين بدين الله . فأما ما بقى من أنباء حروب الردة بمَهْرة وعُمان واليمن مما تلا اليمامة فلم يكن فى مثل خطرها . من ثم آن لأبى بكر بعد اليمامة أن تسكن نفسه ، وآن لخالد بعدها أن يستريح .

وتحول خالد إلى واد من أودية اليمامة يقال له الوبْر ، وكان له به منزل جمع فيه بنت مجاعة وأم تميم .

أفطال هناك مقامه وكملت هناك راحته ؟ ذلك شأن لم تحدثنا به كتب التاريخ .

لكن سياسة أبى بكر وسياسة الإسلام كانت لا تزال فى حاجة إلى سيف خالد ، وسنلقاه لذلك عما قريب . فإلى الملتقى عبقرى الحرب وسيف الله ! إلى الملتقى على شواطئ الفرات ! .